

الفصل الثاني

حياته

١

اسمه ونسبه

هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ابن عكابة ابن ضعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دُعْمَيَّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.

وقد وقفت معظم المصادر التي ترجمت لطرفة عند ثعلبة . بيد أن ابن الأنباري استأنف سياقة نسبه حتى وصل بها إلى عدنان .^(١) وتابعه في ذلك كل من الزوزني في شرحه المعلقات السبع ، والبتريزي في شرحه القصائد العشر في ترجمتها لطرفة بين يدي معلقته . واكتفى أبو عبيد البكري بمد سياقة نسبه إلى وائل^(٢) وتبعه في ذلك البغدادي^(٣) . ووقف ابن حزم عند ضبيعة^(٤) .

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (معلقة طرفة) .

(٢) سبط اللاتي : ٣١٩ .

(٣) خزنة الأدب ١ / ٤١٤ .

(٤) جمهرة أنساب العرب : ٣٢٠ .

وطَرْفَة لقبه الذي به اشتهر، واسمه عمرو، أجمع على ذلك من ترجموا له، لم يخالف عن هذا الإجماع، فيما علمت، إلا أبو سعيد السكري؛ إذ نقل عنه صاحب معجم الشعراء أن اسمه عُبَيْدٌ. وطَرْفَة، بالتحريك، واحدة الطَّرْفَاء، وهو شجر الأثل، وبها لُقِّبَ طَرْفَة أو لُقِّبَ بيت قاله^(١)، وهو^(٢):

لا تُعْجِلا بالبكاء اليومَ مُطَّرَفَا ولا أميرَيْكما بالدار إذ وَقَفَا^(٣)

وذكر المرزباني أن كُنْيَتَهُ أبو إسحاق، وأضاف: ويقال: أبو سعد، ثم نقل قول ابن دريد: كنية طرفة أبو عمرو^(٤). وقال البكري في سياق ترجمته: شاعر جاهلي، يكنى أبا عمرو^(٥).

يظهر لنا، مما تقدم، أن الذين ترجموا لطرفة لم يختلفوا في اسمه ولا في لقبه، وإنما اختلفوا في كنيته، وهو اختلاف، الخطب فيه يسير؛ إذ ربما تعددت كنى الرجل في الزمن القديم، وبتعددها يكون الاختلاف بين الرواة، ولا سيما إذا وصل بعضها إلى سمع الراوية، ولم يصل بعضها الآخر.

على أن تعدد الكنى أو اختلافها لا يقدم في تحديد شخصية الشاعر ولا يؤخر، إذا كان إجماع الرواة قد انعقد على اسمه المميّز الصريح أو لقبه الذي عرف به واشتهر.

(١) الشعر والشعراء: ١٨٨، معجم الشعراء: ٢٠١، الخزانة ١/٤١٤، القاموس والتاج (طرف)، دائرة المعارف الإسلامية (طرفة).

(٢) التاج (طرف).

(٣) المطَّرَف: البعير المشتري حديثاً.

(٤) معجم الشعراء (طرفة).

(٥) سمط اللالي: ٣١٩.

فترة حياته

لم تذكر المصادر القديمة، فيما علمت، سنة ميلاد طرفة أو وفاته. وجلّ ما قالته: إنه شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، أشعر الناس واحدة، وأحدث الشعراء سنّاً، وأقصرهم عمراً. عاصر الملك عمرو بن هند، وكانت منيته على يديه، وهو في العشرينيات من عمره.

غير أن بعض الباحثين المحدثين حاول تحديد سنة ولادته ووفاته بالأرقام، فقد ذهب كلٌّ من فون غر نباوم^(١)، والزركلي^(٢) إلى أنه عاش بين ٥٣٨ - ٥٦٤ م على وجه التقريب، وذهب كلٌّ من فؤاد أفرام البستاني^(٣) وحنّا الفاخوري^(٤) إلى أن حياته كانت على وجه التقريب أيضاً بين ٥٤٣ - ٥٦٩ م. وقال مصطفى صادق الرافعي في تحديد سنة وفاته: «ويقال: إن مقتله كان سنة ٥٥٢ بعد الميلاد، وقيل سنة ٥٦٤»^(٥)، وهذا ما رجحه الدكتور بدوي طبانة^(٦)، منكرّاً على الرافعي رقمه

(١) دراسات في الأدب العربي: ١٤٠.

(٢) الأعلام (طرفة بن العبد).

(٣) الروائع (طرفة بن العبد).

(٤) تاريخ الأدب العربي: ١٠٢.

(٥) تاريخ آداب العرب ٣/٢٢٥.

(٦) معلقات العرب: ١٢٢.

الأول ٥٥٢. أما جرجي زيدان فذهب إلى أن وفاة طرفة كانت سنة ٥٠٠^(١)، وذهب لويس شيخو إلى أن وفاته كانت سنة ٥٦٤^(٢). وانفرد الدكتور عمر فروخ بتحديد سنة وفاته بنحو ٥٦٠^(٣).

ونحن إذا ما نظرنا في هذه الأرقام، متبينين من خلالها الفترة الزمنية التي عاشها طرفة، ترجح لدينا أن أقربها إلى الصواب في تأريخ ميلاده ما ذهب إليه كل من الزركلي وفون غر نباوم، أي نحو سنة ٥٣٨ م.

أما سنة مقتله فأرجح أنها كانت نحو سنة ٥٦٧ م؛ ذلك أن طرفة غادر حيه مطوّفاً في الآفاق في ريقٍ شبابه. ويبدو أن فترة تطوافه وابتعاده عن حيه وقومه قد طالت، فقد رافق عمرو بن أمامة، أخا الملك عمرو بن هند، إلى اليمن، حيث أقاما سنوات، تزوج خلالها عمرو بن أمامة، وأنجب عدداً من الأولاد^(٤). ومما يشهد لطول هذه الفترة القاسية من حياة طرفة تشكيه من الاغتراب الطويل الذي سلخ فيه طرفاً من شبابه بعيداً عن حيه وقومه، وذلك في قوله^(٥):

وليس امرؤ أفنى الشَّبَابِ مجاوراً
سوى حِيهِ إِلَّا كآخَرَ هَالِكِ

ولما عاد إلى قومه نادماً تائباً معتذراً عما فرط منه من صَبَوَاتِ الجَهَالَةِ، وعماية المجون، ونزغات الغيِّ، استوى سيّداً ضَخماً في السادسة والعشرين من عمره، على حدّ قول أخته الخرنق: ^(٦)

عَدَدْنَا لَهُ سِتّاً وَعِشْرِينَ حِجَّةً
فَلَمَّا تَوَفَّاهَا اسْتَوَى سَيِّداً ضَخْماً^(٧)

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١/١٢٥.

(٢) شعراء النصرانية ١/٢٩٨.

(٣) تاريخ الأدب العربي ١/١٣٥.

(٤) شرح القصائد السبع: ١١٩.

(٥) ديوانه بشرح الأعلام: ٨٢.

(٦) ديوانه: ١٠١.

(٧) توفّاهَا: بلغها.

ويغلب على الظن أن طرفة تبوأ في هذه الفترة مكانه سيداً شريفاً في قومه،
يشيد بذكرهم، ويتغنى بحامدهم، ويزهو بسيادتهم.

ثم ارتحل ثانية عن قومه ميمماً شطر الحيرة، حيث عاش فترة في بلاط الملك
عمرو بن هند، ثم في صحبة أخيه قابوس، ثم كان مقتله كما سيأتي تفصيله، وفي
رحلته هذه التي لم يؤب منها تقول أخته: (١)

فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَّابَهُ عَلَى خَيْرِ حَالٍ، لَا وَليدًا وَلَا قَحْمًا (٢)

وبذلك يكون طرفة قد عاش حتى أواخر العشرينيات من عمره، وقد يكون
بلغ التاسعة والعشرين. ويعزز ما وصلت إليه من تقدير سنوات عمره ما نلمس في
حكيمته من نضج، يدل على أن صاحبه رجل خبر الحياة، ومارس الشعر زمناً ليس
بالقصير.

وما يجدر التنبيه إليه في ختام هذه الكلمة، ما وقع فيه المستشرق مكس
سلغسون (Seligsohn) من وهم في مقدمة ديوان طرفة بالإفريقية، إذ جعل طرفة
من شهدوا حرب البسوس (٣)، وهي الحرب التي نشبت بين بكر وتغلب، وانتهت
قبل مولد طرفة بسنوات، كما يفهم من استعراض قتلى أشراف بكر وتغلب فيها؛ إذ
كان معظمهم من طبقة جدّه (٤)، وقد تابعه في وهمه هذا الدكتور عمر فروخ في كتابه
تاريخ الأدب العربي (٥).

(١) ديوانه بشرح الأعلام: ١٠١.

(٢) قحماً: طاعناً في السن.

(٣) Seligsohn Dwian de Tarafa p. 8

(٤) انظر حرب البسوس لابن إسحاق: ١٨٩ (ط دار السلام ببغداد).

(٥) ١٣٦/١

مولده ونشأته

ولد طرفة في البحرين، حيث كان قومه من بني بكر بن وائل ينزلون، ونشأ في بيئة يكتنفها الشعر من أطرافها، فعمه شاعر، هو المرقش الأصغر، وعم أبيه شاعر، هو المرقش الأكبر، وخاله شاعر، هو المتلمس، وأخته الخرنق شاعرة، وجدته لأمه عمرو بن قميثة شاعر.

وبدت عليه مخيل النبوغ والذكاء والشاعرية في فترة مبكرة من حياته، وأية ذلك قوله الشعر، وهو طفل صغير. ويقال: إن أول شعر قاله أبيات أنشدها، وهو مع عمه في سفر، إذ نصب فخاً للصيد، وليث بياض نهاره ينتظر، فلم يواته الحظ، فلما أراد الرحيل وجمع شبابه هبطت قبرة، فقال متعجباً من تأخر هبوطها ونجاتها من فخه:

يا لِكِ مِنْ قُبْرَةٍ بَمَنْمَرٍ خلا لِكِ الجَوْ فَيَبْضِي وَاضْفِرِي

وَنَقْرِي ما شَتِ أَنْ تُنْقَرِي قد رُفِعَ الفَخُّ فماذا تَحْذَرِي

لا بُدُّ يَوْمًا أَنْ تُصَادِي فاضْبِرِي^(١)

(١) الحيوان ٦٦/٣، الشعر والشعراء: ١٨٨، الفاخر لابن سلمة: ١٧٩، فصل المقال: ٢٩٠.

خزانة الأدب ٤١٧/١.

ومن شعره المبكر الذي يدل على شاعرية ناضجة مبكرة، ما قاله لأعمامه معاتباً منذراً مهدداً؛ ذلك أن طرفه لم يقدر له أن ينشأ في كنف أبيه، فقد تخطف الموت أباه العبد بن سفيان، وهو صغير، ولم يحسن أعمامه كفالته، بل إنهم عدواً على ما آل إليه وإلى والدته وردة من إرث أبيه، وأبوا أن يقسموا هذا الإرث، ويعطوا لكل ذي حق حقه، فكان لهذا الجَنَف من أعمامه أثر عميق في نفسه الناشئة المتفتحة، التي لم يتسرب إليها الجشع والأثرة والشح بعد، فإذا هي تنتزى ألماً، وتفيض بشعر، فيه العتاب المخجل، والتهديد المبصر، والتوجيه الحكيم: (١)

صَغُرَ الْبَنُونَ وَرَهْطَ وَرْدَةَ غَيْبُ	مَا تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةَ فِيكُمْ
حَتَّى تَظَلَّ لَهُ الدِّمَاءُ تَصَيَّبُ	قَدْ يَبْعَثُ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ صَغِيرُهُ
بَكَرُ تُسَاقِيهَا الْمَنَائِمَا تَغْلِبُ	وَالظُّلْمَ فَرَّقَ بَيْنَ حَيٍّ وَائِلٍ
مِلْحًا يُخَالِطُ بِالذُّعَافِ وَيُقَشِّبُ (٢)	قَدْ يُورِدُ الظُّلْمَ الْمُبِينُ آجِنًا
وَالكِذْبُ يَأْلُفُهُ الدُّنْيَى الْأَخِيْبُ	وَالصَّدْقُ يَأْلُفُهُ اللَّيْبُ الْمُرْتَجِي
إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا يُحْرَبُ يَغْضَبُ (٣)	أَدْوَا الْحَقُوقَ نَفَرُ لَكُمْ أَعْرَاضُكُمْ

فهذه أبيات تدل في معناها ومبناها على موهبة شعرية ناضجة، وطبيعة فنية خصبة، وتزداد قيمتها حين تكون من شاب ناشئ، شدا الشعر في ريق شبابه، ولما يتسع نطاق مرثياته وتجاربه في الحياة والفن.

وتتجلى موهبته الشعرية وحسن بصره في الشعر أيضاً في قدرته على نقده، وتمييز جيده من رديئه، والاهتداء إلى مواطن الخطأ والضعف فيه، والتبصير بوجه الصواب، وذلك فيما روى أبو الفرج الأصبهاني عن المفضل الضبي وابن الكلبي،

(١) الديوان بشرح الأعلام: ١٠٢، الشعر والشعراء: ١٨٩، خزانة الأدب ١/٤١٦.

(٢) الظلم المبين: المستبين الظاهر. والأجن: المتغير. وملحاً أي ماء ملحاً. والذعاف: السم القاتل.

ويقشِب: يخلط، وهذا مثل، أي يورد الظلم الرجل على ما يسوءه.

(٣) نفر لكم أعراضكم: أي لا تنقص ولا تشتم. ويحرب: يهيج.

قالا: كان المتلمس شاعر ربيعة في زمانه، وأنه وقف على مجلس لبني ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة، فاستنشدوه، فأنشدهم شعراً، قال فيه:

وَقَدْ أَتَنَسَى الْهَمُّ عِنْدَ اخْتِضَارِهِ
بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيَّةُ مُكْدَمٌ^(١)

والصيعرية سمة تكون للإناث خاصة، فقال له طرفة، وهو غلام: استنوق الجمل، أي وصفت الجمل بوصف الناقة، وخلطت، فذهبت كلمته مثلاً.

وأورد أبو الفرج هذه الرواية أيضاً عن ابن السكيت في كتاب الأمثال، وفيها أن طرفة حين قال للمتلمس: استنوق الجمل، ضحك القوم، فغضب المتلمس، ونظر إلى لسان طرفة، وقال: ويل لهذا من هذا، يعني رأسه من لسانه.

وساق أبو الفرج رواية ثالثة عن أبي محمد بن رستم عن ابن السكيت، وفيها أن الشاعر الذي عاب عليه طرفة قوله هو المسيب بن علس، وأنه قال لطرفة بعد نقده إياه: ارجع إلى أهلك بوامثة، وهي الداھية، فقال له طرفة: لو عاينت هن أمك هناك، فقال له المسيب: من أنت؟ قال: طرفة بن العبد، فأعرض عنه المسيب^(٥).

وقد اختلفت النقول في الرجل الذي نقد طرفة قوله، أهو المتلمس أم المسيب أم غيرهما؟ فذهب المرزباني في موضعين من كتابه الموشح إلى أنه المسيب بن علس^(٣)، وذهب في موضع آخر إلى أنه عمرو بن كلثوم^(٤). وذهب أبو عبيد البكري الأؤنبي في كتابه فصل المقال في شرح كتاب الأمثال إلى أنه المسيب بن علس، ثم أضاف: وقيل: هو المتلمس^(٥).

وسواء أكان الشاعر الذي نقد طرفة قوله المسيب، أم المتلمس، أم غيرهما، فإن العبرة من هذه الواقعة واحدة، وهي الدلالة على ذكاء طرفة، وبصره في كلام

(١) ناج: جمل. والصيعرية: سمة من سمات النوق في أعناقها. ومكدم: غليظ.

(٢) الأغاني (ساسي) ١٣٢/٢١.

(٣) ص ١١٠، ١٣٣ (ط دار نهضة مصر ١٩٦٥).

(٤) ص ١١١.

(٥) ص ١٦٢.

العرب، وحدة ذهنه في معرفة الصحيح من الخطأ فيه، في سن مبكرة، شديدة التبكير، إذ كان غلاماً يلعب مع الصبيان.

لم تسعف الأخبار عن طرفة في معرفة تفاصيل نشأته، وأثرها في تكوين شخصيته. غير أن جملة ما يؤخذ من الأخبار القليلة، ومن شعره، أنه نشأ يتيمًا لا أب بجانبه يرعاه ويسدّد خطاه، وكان لا بد لربيب البحرين أن يشهد من الحضارة والعمران وأنواع الملاهي والحوانيت والندمان والقيان ومجالس الشراب ما أثر في نفسه الناشئة، وجعلها تقبل على حياة اللهو والشراب ومجالسة النساء، دون أن يلقي من يأخذ على يده، سوى أمه، ويبدو أنها كانت رقيقة به، مشفقة عليه، متألّمة ليطمه، فلم تكن تقسو عليه في النصيحة، ولم تكن لتمسك يدها عنه في مده بالمال الوفير.

وكان في حسب من قومه، كما يقول ابن قتيبة^(١)، جريئاً على هجائهم وهجاء غيرهم. ويبدو أن شعره بكرم المحتد وشرف الأصل، ولّد في نفسه الاعتداد بالنفس، والجرأة على الناس، واندفع في ميعة صباه لتحقيق ذاته، وإبراز شخصيته، وتمييزه على لداته وأقرانه، ولم يكن له من سبيل لتحقيق ذلك إلا أن يبذل ما في يده من مال طارف وتليد. والتفّ حوله رفاق السوء، وما أكثرهم حول يتيم طائش مندفع تياه بحسبه الرفيع وشبابه الغضّ، وأخذوا يزينون له حياة الفتنة والفساد، فاندفع في حياة اللهو والمجون والشراب، وأصبح همه عبّ كؤوس اللذة دهاقاً مترعة، وتلبية نزوات النفس الأمّارة بالسوء، ولم يكن إلى جانبه من يكفكف من غلواء اندفاعه في هذا الطريق الوعر، ويسمعه كلمة النصح والتوجيه والإرشاد، فكان كل يوم يمر عليه يزيد إبعالاً في طريق الفتنة والشروود والضلال، حتى غدا هذا النمط من العيش الماجن اللّاهي المسرف فلسفته التي لا يجيد عنها في الحياة^(٢):

فَلَوْلَا ثَلَاثُ هُنَّ مِنْ حَاجَةِ الْفَتَى وَجَدَّكَ لَمْ أُخْفِلْ مَتَى قَامَ عُودِي^(٣)

(١) الشعر والشعراء: ١٨٥.

(٢) الديوان: معلقته، الأبيات: ٥٦ - ٥٩.

(٣) متى قام عُودِي: أي متى مُتْ فقامت النائحات عليّ.

فَمِنْهُنَّ سَبْقِي الْعَاذِلَاتِ بِشَرْبَةِ كُمَيْتٍ، مَتَى مَا تُغَلَّ بِالْمَاءِ تُزِيدُ^(١)
 وَكَرِّي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحَنَّبًا كَسِيدِ الْغَضَا، نَبْهَتُهُ، الْمُتَوَرِّدُ^(٢)
 وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ، وَالدَّجْنُ مُعْجَبٌ، بِيَهْكَنَةِ تَحْتَ الطَّرَافِ الْمُعَمَّدِ^(٣)

روى الجاحظ^(٤) أن بعضهم سأل امرأة القيس: ما أطيب عيش الدنيا؟ قال:
 بيضاء رعبوية^(٥) بالطيب مشبوبة^(٦) بالشحم مكروبة^(٧). وسئل الأعشى عن ذلك
 فقال: صهباء صافية، تمزجها ساقية، من صوب غادية^(٨). وقيل مثل ذلك لطفرة،
 فقال: مطعم شهوي، وملبس دفيي، ومركب وطوي.

ويستفاد من شعر لطفرة أنه لم يتوقف عن تبذير المال، فإذا ما نفذ ماله، ودعا
 الداعي إلى البذل أو الإنفاق على مجالس اللذة والأنس، مديده إلى مال أهله وذويه.
 ولعل هذا من أسباب تدمير قومه من تصرفاته الطائشة وتجاهيمهم إياه. وفي معلقته
 أبيات واضحة الدلالة على عقره إبلاً لشيخ ممسك خصيم شديد الخصومة من
 أقاربه، ليقدم من لحمها شواء شهياً لأخذان اللهو والشراب، ولم يحل صياح الشيخ
 واحتجاجه دون عقرة لطفرة لهذه الإبل، فإذا هي بين أيدي الإماء، وفوق الرماد الحار
 شواء سميناً لذيذاً، يسعين به على الشرب اللاهي الطروب^(٩):

وَبِرْكَ هُجُودٍ قَدْ أَثَارَتْ مَخَافَتِي نَوَادِيَهُ أَمْشِي بِعَضْبٍ مُجَرَّدٍ^(١٠)

- (١) سبقي العاذلات: أي أغدو على شرب الخمر قبل لوم العاذلات.
 (٢) المضاف: المدرك الذي أحاط به العدو. ومحنباً: فرساً. والسيد: الذئب. والغضا: الشجر. ونبهته:
 هيئته. والمتورد: الذي يطلب الورد.
 (٣) يوم الدجن: اليوم الغائم الذي يحسن فيه اللهو. والبهكنة: المرأة الجميلة. والطراف: البيت من
 آدم. والمعمد: القائم على أعمدة.
 (٤) البيان والتبيين: ١٧٨/٢، وانظر العقد الفريد ٧/٢١٢.
 (٥) أي حسنة.
 (٦) أي شرفة.
 (٧) أي مفتولة.
 (٨) أي من مطر سحابة.
 (٩) ديوانه بشرح الأعلام، الأبيات ٨٧ - ٩٢ من المعلقة.
 (١٠) البرك: جماعة إبل الحيا. والهجود: النيام. ونواديه: أوائله. والعضب: السيف القاطع.

عَقِيلَةُ شَيْخِ كَالْوَيْبِلِ يَلْنَدَدِ (١)
أَلَسْتَ تَرَى أَنْ قَدْ أَتَيْتِ بِمُؤَيِّدِ (٢)
شَدِيدِ عَلَيْكُمْ بَغْيِهِ مُتَعَمِّدِ؟
وَالْأُتُكَّفُوا قَاصِمِي الْبَرَكِ يَزْدَدِ (٣)
وَيُسْعَى عَلَيْنَا بِالسُّدَيْفِ الْمُسْرَهْدِ (٤)

فَمَرَّتْ كَهَاءَ ذَاتُ حَيْفٍ جُلَالَةَ
يَقُولُ وَقَدْ تَرَّ الْوُظَيْفُ وَسَاقَهَا
وَقَالَ أَلَا مَاذَا تَرَوْنَ لِشَارِبِ
فَقَالَ ذَرُوهُ إِنَّمَا نَفَعَهَا لَهُ
فَظَلَّ الْإِمَاءُ يَمْتَلِنَنَّ حُورَاهَا

-
- (١) الكهاة: الضخمة المسنة. والحيف: جلد الضرع المشتمل عليه. والجلالة: الضخمة. وعقيلة المال: خيره وأفضله. والويبيل: العصا، شبه بها الشيخ لهزاله وضمرة. واليلندد: شديد الخصومة.
(٢) تر: سقط. والوظيف: ما بين الرسغ والساق. والمؤيد: الداهية.
(٣) يزدد: أي يزداد في نفاذه من هذا العاقر.
(٤) يمتلن حوارها: أي يشتونه في الملة، وهي الرماد الحار والجمر. والحوار: ولد الناقة. والسديف: شقق السنام. والمسرهذ: الحسن الغذاء والسمين.

تشرّده وأسفاره

ظلّ طرفه مسترسلاً في عمايته، سادراً في غوايته، يمزج بين اللهو والمجون والحماسة، ويجترىء على هجاء أهله والناس، ويسخر بمن يخالفه في مذهبه ومشربه في الحياة، ويبدد ما في حوزته من مال، غير مقدر للعواقب، ولا حاسب للغد المجهول أي حساب، حتى باع كل ما عنده، وأصبح صفر اليدين من كل متاع في هذه الحياة. ونظر إلى أهله وعشيرته، فإذا هم قد انفضوا من حوله، وتحاموا مخالطته، وإذا هو معزول عنهم كما يعزل البعير الأجرّب المهنوء بالقَطِران^(١):

وما زالَ تَشْرابي الخُمورَ ولذّتي ويبيعي وإنفاقي طَريفِي ومُتَلدِي^(٢)
إلى أن تحامنتي العَشيرةُ كُلُّها وأفردتُ إفرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ^(٣)

هنالك، لم يجد طرفه بدءاً من أن يشدّ عصا الترحال، فغادر ديار قومه، هائئاً على وجهه، تقذف به النوى في أحياء العرب ومفاوز الصحراء، لا أنيس له في طريقه اللاحب الطويل سوى ناقته، ولعل هذه الصحبة الطويلة لها هي سرّ إبداعه في وصفها ووصفاً، لم يبلغ شأوه شاعر.

(١) المعلقة: ٥١، ٥٢.

(٢) الطريف: ما استحدثته من المال. والمتلد: ما كان قديماً عندك.

(٣) المُعَبَّد: المظلي بالقَطِران.

ويبدو أنه في هذه الفترة من حياته وصل الحبشة، كما يفهم من عنوان قصيدة له في ديوانه، نص على أنه قالها في إطراده إلى النجاشي^(١).

ويستفاد من مجموع الأخبار التي تعرضت لطفرة وعلاقته بالعرش الحيري، أنه أُلِّمَ في هذه الفترة من حياته بالخيبة، وكان على عرشها عمرو بن هند، وقد رشح أخاه قابوساً ليملك بعده. فلما قدم إليه طرفة، جعله في صحابة قابوس في جملة العرب المخصَّصين لمسامرته والركوب معه.

ولبت طرفة شطراً من حياته في بلاط عمرو بن هند، ينادم أخاه قابوساً. ويبدو أنه لم يلق في هذه الفترة الترحيب الكافي من عمرو وقابوس، واعتراه غير قليل من الضجر من وقوفه على بابها النهار كله، فلا يؤذن له فيدخل، ولا يؤمر بالرجوع فيرجع. وإلى هذا يشير بقوله^(٢):

وَأَمَّا يَوْمُنَا فَنَنْظُلُّ رَكْباً وَوَقُوفاً مَا نُحِلُّ وَمَا نَسِيرُ

ورأى منها جفوة، أدت به إلى هجائها هجاء مقذعاً في قصيدته الرائية^(٣):

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرٍو رَغُوثاً حَوْلَ قُبَيْتِنَا تَخُورُ^(٤)

بيد أن هذا الهجاء بقي في طيِّ الكتمان، لم يبلغ مسامعها. ولما وقعت الواقعة بين عمرو بن هند وإخوته الأشقاء من جهة، وبين أخيه لأبيه عمرو بن أمارة من جهة ثانية، بسبب حرمانه من نصيبه في الملك، كما سيأتي بيانه، انضمَّ طرفة إلى عمرو بن أمارة، وسار معه إلى اليمن، فحقد عليه عمرو بن هند، لما كان من مسيره مع أخيه عمرو بن أمارة، وكانت هذه أول موجدة عليه^(٥).

(١) الديوان بشرح الأعلام: ٨٥.

(٢) ديوانه: ٩٨.

(٣) ديوانه: ٩٦.

(٤) الرغوث: النعجة المرضع.

(٥) شرح القصائد السبع، مقدمة قصيدة طرفة.

عودته إلى قومه

شطت بطرفة نوى، أقصته عن ديار قومه، وقذفت به بعيداً عن ملاعب صباه، ومغاني شبابه، ومطارح ذكرياته. ولم تواته الأيام في رحلته هذه، بل تجهمت له، وقست عليه، وألقت بأرزائها على عوده الغض الرطيب، وجعلته يواجه وحده، وهو الفتى ابن العشرين، الهموم والأعباء التي ينوء بحملها الرجال أولو العزم.

طوّف في الآفاق، وجاب الممالك، طمعاً في الوصول إلى حال أحسن من الحال التي كان عليها في ديار قومه، فلم يظفر بغير الاغتراب المضني، والشقاء الواصب، والحسرات الحارّة، يصعدها من نفس مكتئبة حزينة، برّح بها الحنين للأهل والديار، ففاضت بشعر، يحكي ما يعتلج في أعماق تلك النفس من حرقة كابية، وألم دفين^(١):

ولا غرّو إلا جارتني وسؤالها
ألا هل لنا أهل؟ سئلت كذلك^(٢)
تعبير سيري في البلاد ورحلتي
ألا ربّ دار لي سوى حرّ دارك^(٣)

(١) ديوانه : ٨٢ .

(٢) لا غرو: لا عجب. سئلت كذلك: دعاء عليها بالغرّة، أي صيرك الله غريبة مثلي، تُسألين كذلك السؤال.

(٣) حرّ الدار: وسطها وأكرمها.

وليس امرؤ أفنى الشَّبَابَ مُجاوراً سِوى حَيِّهِ إِلا كَأَخْرَ هَالِكٍ^(١)
 وزاد في شقائه وكربة نفسه وأساء خيبةً أمله بمقتل عمرو بن أمامة، إذ كانت
 تراود نفسه الناشئة الطَّموح آمال عذاب بانتصار عمرو بن أمامة على أخيه عمرو بن
 هند، وبنيله حظوة عنده، تقلب حياته من جحيم إلى نعيم، وتنقله من الشقوة
 والتشرد والضياع، إلى السعادة والاستقرار والأمن واليمن والرفاه.

ولكن الأقدار لم تمد له في تملي هذه الأحلام، فسرعان ما قُتِل عمرو بن
 أمامة، وعاد طرفه يجرّ أذيال الخيبة والمرارة والحجل.

هنالك، تجلّى لطفة غيّه وزيفه وخطل طريقته، وانقدحت في نفسه شرارة
 التوبة من ماضيه الحافل بالآثام، وهجس في نفسه هاجس العودة إلى ديار قومه
 وأهله وأحبته، فلبّاه، وعاد إليهم يخاطبهم بتواضع ووداعة ولين جانب:^(٢)

ولقد كنتُ عليكم عاتباً فمَعَبْتُمْ بِذَنُوبٍ غَيْرِ مُرٍّ^(٣)
 كنتُ فيكم كالمُنْطَبي رأسه فأنجلى اليومَ قِناعي وخُمُرُ
 سادراً أَحْسِبُ غَيِّي رَشِداً فتنَاهَيْتُ وقد صابَتْ بِقُرٍّ^(٤)

وعاد طرفه ليووجه واقعه القاسي من جديد، فلم يكن أمامه إلا أن يسرح مع
 أخيه معبد فيما تبقى لهما من إبل، على رواية ابن الأعرابي، أو في إبل أخيه معبد، على
 رواية غيره^(٥).

وأئف طرفه أن يرعى الإبل، وكان إذا طامن من كبريائه، ونزل لرعايتها،
 يرغبها، يرهاها يوماً، ويغيب عنها يوماً. ولما أعجبها قال له أخوه معبد: لِمَ لا تسرح
 بإبلك؟ كأنك ترى أنها، إن أخذت، يردها شعرك هذا؟! فأجابه طرفه بحدة: إني

(١) هالك: ميت، لما يلقى من الذل وقلة التمكن.

(٢) ديوانه: ٦٧.

(٣) عقتم: عطفتم ورجعتم. والذَنُوب: الدلو، ضربها مثلاً للحظ الذي نال منهم. وغير مرٍّ: أي لم
 يطلوا به ولا منوا، فيكون مرّاً.

(٤) تناهيت: أقصرت عما كنت فيه وكففت. وصابت بقُرٍّ: أي صارت الشلّة إلى قرارها.

(٥) شرح القصائد العشر، البيت: ٧١.

لا أخرج فيها أبداً، حتى تعلم أن شعري سيردها إن أخذت، فتركها، وأخذها ناس من مضر، فادّعى جوار عمرو بن هند وقابوس ورجل من اليمن، يقال له بشر بن قيس، وفي ذلك يقول طرفة مخاطباً عمرو بن هند^(١):

لَعَمْرُكَ مَا كَانَتْ حَمُولَةً مَعْبِدٍ عَلَى جُدِّهَا حَرْباً لِدِينِكَ مِنْ مُضَرَ^(٢)
 وَكَانَ لَهَا جَارَانِ قَابُوسُ مِنْهُمَا حِذَاراً، وَلَمْ أُسْتَرِعْهَا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
 وَعَمْرُو بْنُ هِنْدٍ كَانَ مِمَّنْ أَجَارَهَا وَبَعْضُ الْجَوَارِ الْمُسْتَفَاثِ بِهِ غَرَّرَ
 أَعْمَرُو بْنُ هِنْدٍ مَا تَرَى رَأْيِ صِرْمَةٍ لَهَا شَنْبٌ تَرَعَى بِهِ الْمَاءَ وَالشَّجَرَ^(٣)

ويبدو أن عمرو بن هند تباطأ في ردّ الإبل، بل تذهب بعض الروايات إلى أنه أخذها انتقاماً من طرفة، لما كان من مسيره مع أخيه عمرو بن أمارة إلى اليمن^(٤).

وتذهب رواية أخرى أوردها البتريزي في شرحه لمعلقة طرفة^(٥) إلى أن هذه الإبل التي ضلت كانت لأخيه معبد، وأن طرفة اهتم باستعادتها، فسأل ابن عمه مالكا أن يعينه في طلبها، فلم يلق من ابن عمه إستجابة، بل رأى إعراضاً وتجهماً ولوماً، وقال له: فرطت فيها، ثم أقبلت تتعب نفسك في طلبها؟

وفي هذه الواقعة التي أحدثت أثراً عميقاً في نفس طرفة يقول^(٦):

فَمَالِي أَرَانِي وَابْنَ عَمِّي مَالِكاً مَتَى أَدُنُّ مِنْهُ يَنَأُ عَنِّي وَيَبْعُدِ
 يَلُومُ وَمَا أَذْرِي عِلَامَ يَلُومُنِي كَمَا لَامَنِي فِي الْحَيِّ قُرْطُ بْنُ أَعْبِدِ^(٧)

(١) ديوانه بشرح ابن السكيت: ٣.

(٢) الجَدُّ: البئر التي تكون في موضع كثير الكلال. لدينك: لأهل طاعتك. يقول: نحن في أهل طاعتك، ومضر في طاعتك، فما بالنا أغبر علينا؟ ديوانه (ابن السكيت): ٣.

(٣) الصِّرْمَةُ: القطعة من الإبل.

(٤) شرح القصائد السبع: ١٢٢.

(٥) البيت: ٧١.

(٦) ديوانه بشرح الأعلام: ٣٢.

(٧) قرط بن أعبد: رجل من حيّ طرفة.

وَأَيَّاسَنِي مِنْ كُلِّ خَيْرٍ طَلَبْتُهُ
 عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ قُلْتُهُ غَيْرَ أَنِّي
 وَقَرَّبْتُ بِالْقُرْبَى وَجَدَّكَ إِنِّي
 وَإِنْ أَدَعِ لِلْجَلَى أَكُنْ مِنْ حُمَاتِهَا
 وَإِنْ يَقْذِفُوا بِالْقَذَعِ عِرْضَكَ أَسْقِهِمْ
 وَظَلْمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مِضَاضَةً
 كَأَنَا وَضَعْنَاهُ عَلَى رَمْسٍ مُلْحَدٍ^(١)
 نَشَدْتُ فَلَمْ أُغْفَلْ حَمُولَةً مَعْبِدٍ
 مَتَى يَكُ عَهْدٌ لِلنَّكِيثَةِ أَشْهَدُ^(٢)
 وَإِنْ تَأْتِكَ الْأَعْدَاءُ بِالْجَهْدِ أَجْهَدِ
 بِشَرْبِ حِيَاضِ الْمَوْتِ قَبْلَ التَّهْدُدِ
 عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهَنْدِ^(٣)

لقد حز في نفس طرفة أن يلقي مثل هذه المعاملة من أحد أبناء أهله وعشيرته، وزاد في ألمه أنه يحمل بين جنبيه شعوراً صادقاً بحبهم، ويحس في أعماقه رغبة جارفة في نجدتهم، والذود عن حياضهم، إن ألم بساحتهم مكروه، أو دهم ديارهم مغير، أو قذف عرضهم قاذف.

وتبدت لطرفة الحقيقة المرة، وهي أنه لم يلق هذا التجهم من بعض أهله وبني قومه إلا لصفر يده من المال، وخلو حياته من الولد، فانسابت من نفسه بمرارة تلك الحقيقة القاسية شعراً، يذكر فيه سيدين من سادات العرب، أحدهما عرف بكثرة المال، والثاني عرف بكثرة الولد^(٤):

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ
 وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بْنَ مَرْثَدٍ^(٥)
 فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَعَادَنِي
 بَنُونَ كِرَامٍ سَادَةٌ لِمَسُودٍ^(٦)
 ويروي أبو عبيدة أن عمرو بن مرثد، ابن عم طرفة، لما سمع قول طرفة قال:

-
- (١) يقول: قد يشمت من كل خيره كأنه قد مات ودفنته في القبر.
 (٢) قربت بالقرين: أدلت على ابن عمي بالقرابة. متى يك عهد للنكيسة أي متى يقع أمر يبلغ فيه أقصى المجهود أشهده.
 (٣) مضاضة: حرقة.
 (٤) ديوانه: ٣٧.
 (٥) قيس بن خالد: هو قيس بن خالد بن عبد الله ذي الجدين من بني شيبان. وعمرو بن مرثد: ابن عم طرفة.
 (٦) عادني بنون: أتوني وعادوني. سادة لمسود: أي سادة أبناء سادة.

أبعثوا إلى طرفة فليأتني، فأتاه، فقال له: أما الولد، فإله يعطيكه، وأما المال، فلا تبرح حتى تكون أوسطنا مالاً، ثم أمر بنيه، وهم سبعة، أن يعطوه عشراً عشراً من الإبل، حتى أعطاه بنو عمرو سبعين بعيراً، ثم قال لثلاثة من بني أبنائه: أعطوه عشراً عشراً، فأعطوه ثلاثين^(١).

وتحققت كلمة طرفة لأخيه معبد: «لا أخرج في الإبل أبداً، حتى تعلم أن شعري سيردّها إن أخذت»، فقد عوضه عنها ابن عمه عمرو بن مرثد وبنوه وحفدته أيما تعويض، وعوض هو بدوره أخاه معبداً خسلته بضياح إبله.

وأقام طرفة فترة من حياته ينعم بخفض العيش، ويتقلب في أعطاف النعيم، ويكثر من مجالس أنسه وهوه، وينفق بسخاء في هذه المجالس، حتى نفذ ما تبقى لديه من مال، وأصبح لزاماً عليه أن يبحث عن مجال حيوي جديد يتجه إليه، فلم يجد إلا الارتحال إلى بلاط عمرو بن هند في الحيرة.

(١) معلقته، البيت: ٨٠.

ارتحاله إلى عمرو بن هند

تؤكد المصادر التي ترجمت لطرفة أنه قدم على عمرو بن هند، ولكنها لم تفصل القول في هذه الزيارة، ولم تحدّد الفترة التي تمت فيها، ولم تقل شيئاً عن تعددها. جلّ ما قالته أنها تمت، وأن طرفة عاش فترة من حياته في بلاط عمرو بن هند وأخيه قابوس، لم تطب فيها الحياة لطرفة، فهجأهما. ولما سمع عمرو بن هند بهجائه دبّر أمر مقتله.

يقول ابن قتبية: وكان طرفة ينادم عمرو بن هند، فأشرفت ذات يوم أختُه، فرأى ظلّها في الجمام الذي في يده، فقال^(١):

ألا يا بَأيَ الظُّبَيِّ الِّ ذِي يَبْرُقُ شَنْفَاهُ^(٢)
وَلَوْلَا الْمَلِكُ الْقَاعِ دُ قَدْ أَلْثَمَنِي فَاهُ

فحقد ذلك عليه، وكان قال أيضاً^(٣):

وَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرٍو رَغَوْنَا حَوْلَ قُبَيْتِنَا تَدورُ^(٤)

(١) الشعر والشعراء: ١٨٩.

(٢) الشَّنْف: الذي يلبس في أعل الأذن، والذي في أسفلها القرط، وقيل: هما سواء.

(٣) الشعر والشعراء: ١٨٩.

(٤) مضمي البيت وشرحه ص ٣١.

لَعَمْرُكَ إِنَّ قَابوسَ بْنِ هِنْدٍ لَيَخْلِطُ مُلْكُهُ نُوكَ كَثِيرًا^(١)

ثم يكمل ابن قتيبة القصة التي حبرها الرواة في مقتله^(٢)، والتي سنعرض لها بعد قليل.

والذي أرجحه من استقراء أخباره وشعره أن طرفه أَلَمَ بالحيرة، واتصل بعمرو بن هند وأخيه قابوس غير مرة، كما بينت في كلامي على «تشرده وأسفاره». وربما كانت زيارته هذه لعمرو بن هند بعد عودته إلى دياره، آخر زيارته للحيرة، ولعمرو بن هند، إذ أعقبها مقتله.

ويغلب على الظن أن عمرو بن هند أعجب بشعر طرفه في هذه الفترة الأخيرة من حياته، وأنس به، وقرّ به. ولكن فترة الإعجاب والأنس والتقريب هذه لم تطل للأسباب الآتية:

١ - شخصية طرفه الفتية العزيزة المستعلية الفخور، التي لا يمكن أن تذوب في شخصية الملك المدوح، ولا تستطيع على المجاملة والتزلف والتملق صبراً.

٢ - تشبيهه بأخته، كما ذكر ابن قتيبة، فقد يعدّ عمرو بن هند هذا التشبيب، إن صحت الرواية، تطاولاً من طرفه على مقام البيت المالك، وخوضاً في أعراض عقيلاته من النساء.

٣ - تسرّب أنباء هجائه لعمرو بن هند وأخيه قابوس وبني المنذر^(٣)، وإنه لهجاء مرّ موجه، نعرف قيمته وأثره في نفس المهجو من قول الجاحظ، إذ عدّ طرفه بمجنّ مدحوا فرفعوا من قدر من مدحوه، وهجوا فوضعوا من قدر من هجوه^(٤).

(١) مضي البيت وشرحه ص ٣١.

(٢) الشعر والشعراء: ١٨٩.

(٣) انظر ديوانه بشرح الأعلام: ١٠١، ١١١، وبشرح ابن السكيت: ١٥، ٥٠.

(٤) البيان والتبيين ٨٣/٤.

٤ - مطالبته عمرو بن هند بأخذ الثار لأخيه عمرو بن أمامة من قبيلة مراد التي قتلتها ، وذلك في قوله^(١) :

أَعْمَرُ بِنَ هِنْدٍ مَا تَرَى رَأْيِي مَعْشَرٍ أَمَاتُوا أَبَا حَسَّانَ جَاراً مُجَاوِراً

٥ - معاتبته على أخذ إبله ، لما كان من مسيره مع عمرو بن أمامة ، وذلك في قوله^(٢) :

لَعَمْرُكَ مَا كَانَتْ حَمُولَةٌ مَعْبِيدٍ عَلَى جُدِّهَا حَرْباً لِدِينِكَ مِنْ مُضَرٍّ^(٣)

وقد أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى نفص عمرو بن هند يده من إخلاص طرفه وولائه له ولعرشه ، بل ثبت له تعاليه وتمرده والخروج عليه ، ومن ثم عقد العزم على التخلص منه ، ولم ينفع طرفه اعتذاره لعمرو بن هند حين أحس أن هجاءه له ولآل بيته قد تسرب إليه ، وإنه لا اعتذار ، على ما فيه من لين وحسن تأت ، لم يخل من اعتداد الحدائثة وعنجهية الشباب^(٤) :

إِنِّي وَجَدْتُكَ مَا هَجَوْتُكَ وَالْأَنْصَابُ يُسْفَحُ بَيْنَهُنَّ دَمٌ
وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِذَلِكَ إِذْ حُبِسْتُ وَأَمْرٌ دُونَ عَبِيدَةَ الْوَدَمِ^(٥)
أَخْشَى عِقَابَكَ إِنْ قَدَّرْتَ وَلَمْ أَغْدِرْ فَيُؤَثِّرَ بَيْنَنَا الْكَلِمُ^(٦)

وإذا أضفنا إلى هذه الأسباب جميعاً أن عمرو بن هند لا يمكن أن يغتفر لطفرة مسيره مع أخيه عمرو بن أمامة إلى اليمن ، مهما تظاهر لطفرة بالصفح ولين القول ، دهاء منه وتألّفاً أو استدراجاً ، أدركنا الأسباب البعيدة التي جعلت عمرو بن هند لا يزور عن طرفه فحسب ، بل يصمم على قتله .

(١) القصيدة الأولى في ديوانه بشرح ابن السكيت .

(٢) القصيدة الثانية في ديوانه بشرح ابن السكيت .

(٣) مضي البيت وشرحه ص ٥٢ .

(٤) ديوانه بشرح الأعلام : ١٠١ .

(٥) حبست : يعني الإبل التي أُغبر عليها . وأمرٌ دون عبيدة الودم : يقال : أمرٌ دون فلان الودم ، إذا استبد بالأمير دونه ، وهذا مثل . وأصل الإمرار : شدة القتل . والودم : السيور التي تُشدُّ بها الدلو إلى العراقي . وعبيدة : أخو طرفه .

(٦) يوتر بيننا الكلم : أي يتحدث عنا .

سجنه ومقتله

كثرت الروايات وتعددت الأخبار حول سجن طرفة ومقتله، والأسباب التي أدت إلى نهايته هذه، وهو في ميعة الصبا وربيعان الشباب، ومعظم هذه الروايات والأخبار يدور حول مقدمه على عمرو بن هند، وهجائه له ولأخيه قابوس، وقد أودى هذا الهجاء بحياته في قصة منمقة محبرة منسقة الحوادث، للخيال فيها نصيب كبير، وهي مروية في معظم كتب الأدب والأخبار.

وخلاصتها: أن طرفة كان هجا عمرو بن هند، ولم يبلغه هذا الهجاء، حتى خرج يوماً إلى الصيد، فأمنع في الطلب، وانقطع في نفر من أصحابه، حتى أصاب طريدة^(١)، فنزل وقال لأصحابه: اجمعوا حطباً، وكان فيهم عبد عمرو بن بشر، ابن عم طرفة، وزوج أخته، وكان طرفة قد هجاه وسخر منه، إثر شكاة أخته منه، فقال^(٢):

ولا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ لَهُ غِنَى وَأَنَّ لَهُ كَشْحًا، إِذَا قَامَ، أَهْضَمًا^(٣)
وَأَنَّ نِسَاءَ الْحَيِّ يَعْكُفْنَ حَوْلَهُ يَقْلُنَ: عَسِيبٌ مِنْ سَرَارَةِ مَلْهَمًا^(٤)

(١) أصاره إليه: أماله.

(٢) الشعر والشعراء: ١٨٥.

(٣) الكشح الأهضم: الخصر الضامر، والكلام على الاستهزاء به، لبدانته.

(٤) العسيب: عسيب النخلة. وسرارة كل شيء: وسطه وأفضله. وفلهم: موضع باليمامة كثير النخل.

وفي رحلة الصيد هذه قال عمرو بن هند لعبد عمرو: اشو للقوم، فأوقد ناراً وشوى، فبينا عمرو يأكل من شوائه، وعبدُ عمرو يقدم إليه، إذ نظر إلى خضر قميصه منخرقاً، فأبصر كشحه، وكان من أحسن أهل زمانه كشحاً وجسماً، فقال عمرو بن هند: يا عبد عمرو، لقد أبصر طرفة حسن كشحك حين قال: «ولا عيب فيه...» البيت.

وفي الشعر والشعراء: أن عمرو بن هند خرج للصيد، فأصاب حماراً، فعقره وقال لعبد عمرو: انزل إليه، فنزل إليه فأعياه، فضحك عمرو بن هند وقال: لقد أبصرك طرفة حين قال: «ولا عيب...» البيت^(١).

فغضب عبد عمرو من سخريه عمرو بن هند به، وقال: أبيت اللعن، الذي قال فيك أشدّ مما قال فيّ. قال عمرو: ما الذي قال؟ فندم عبد عمرو على ما سبق منه، وأبى أن يسمعه، فقال: أسمعني، وطرفة آمن. فأسمعه القصيدة التي هجاه فيها، ومطلعها:

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرٍو رَغُوثاً حَوْلَ قُبَيْتِنَا تَخْشُورُ^(٢)
فسكت عمرو بن هند على وقر في نفسه^(٣)، وكره أن يعجل عليه لمكان قومه، فأضرب عنه، وبلغ ذلك طرفة، وطلب غرته والاستمکان منه، حتى أمن طرفة، ولم يخفّه على نفسه، وظن أنه قد رضي عنه.

وقدم هو وخاله المتلمس على عمرو بن هند يتعرضان لفضله ومعروفه، فكتب لهما إلى عامله على البحرين وهجر، وهو ربيعة بن الحارث العبدي، وقال لهما: انطلقا إليه فاقبضا جوائزكما، فخرجا، فلما هبطا النجف، قال المتلمس: يا طرفة، إنك غلام حدث، والمملك من قد علمت حقه وغدره، وكلانا قد هجاه، فلست آمن أن يكون أمر فينا بشر، فهلم فلننظر في كتبنا هذه، فإن يك قد أمر لنا بخير مضيئنا، وإن تكن الأخرى لم نهلك أنفسنا.

(١) ص ١٨٦.

(٢) مضي البيت وشرحه ص ٣١.

(٣) أي ضغن وعداوة.

وأبي طرفة أن يفك خاتم الملك، وعدل المتلمس إلى غلام من غلمان الحيرة عبادي، فأعطاه الصحيفة، فقرأها، فقال: ثكلت المتلمس أمه، فانتزع الصحيفة من يدي الغلام، واكتفى بذلك من قوله، وأتبع طرفة فلم يلحقه، وألقى الصحيفة في نهر الحيرة، ثم خرج هارباً إلى الشام.

ويقال إن المتلمس قال لطرفة حين قرأ كتابه: تعلمن أن الذي في صحيفتك مثل الذي في صحيفتي. قال طرفة: إن كان اجترأ عليك ما كان ليجتريء علي، ولا ليغرني ولا ليُقدم علي!

ثم سافر طرفة حتى قدم على عامل البحرين، وهو بهجر، فدفع إليه كتاب عمرو بن هند، فقرأه، فقال له: هل تعلم ما أمرتُ فيك؟ قال: نعم، أمرتُ أن تجيزي وتحسن إلي. فقال لطرفة: إن بيني وبينك خوولاً، أنا لها راع حافظ، فاهرب من ليلتك هذه، فإني قد أمرتُ بقتلك، فاخرج قبل أن نصبح ويعلم بك الناس. فقال له طرفة: قد اشتدت عليك جائزتي، فأحببت أن أهرب وأن أجعل لعمرو بن هند علي سبيلاً، كاني أذنبتُ ذنباً، والله لا أفعل ذلك أبداً! فلما أصبح أمر بحبسه.

وجاءت بكر بن وائل، وقالت قدم عليك طرفة! فدعا به صاحبُ البحرين، فقرأ عليهم وعليه كتاب الملك، ثم أمر بطرفة فحبس، فتكرّم عن قتله، وكتب إلى عمرو بن هند أن ابعث إلى عمالك غيري، فإني غير قاتل الرجل، فبعث إليه عمرو بن هند رجلاً من بني تغلب، يقال له: عبد هند بن جرد، واستعمله على البحرين، وكان رجلاً شديداً شجاعاً، وأمره بقتل طرفة، وقتل عامل البحرين، رببعة بن الحارث العبدي أيضاً، فقدم عبد هند البحرين، وقرأ عهده على أهل البحرين، ولبت أياماً، فاجتمعت بكر بن وائل، وهمت به، وكان طرفة يجرّضهم، وانتدب له رجل من بني عبد القيس، ثم من الحوثر، يقال له: أبو ريشة، فقتله، فقبره بهجر بأرض منها لبني قيس بن ثعلبة^(١).

(١) الشعر والشعراء: ١٨٥، ١٨٦، شرح القصائد السبع (قصيدة طرفة)، ديوان طرفة بشرح الأعلام: ٩٨ - ١٠٠.

هذه هي أبرز حوادث القصة التي حفلت بها كتب الأدب والأخبار، فقد اتفق معظمها على أن طرفة والمتلمس قدما على عمرو بن هند، يلتمسان معروفه وفضله، فهجوا، فكتب لهما كتاباً لعامله في البحرين، أوهمها فيه بالجائزة، وأمر بقتلهما، فاستراب المتلمس في الكتاب، فدفعه إلى غلام حيري، أطلعه على مضمونه، فنجا، وأبى طرفة، فهلك^(١).

وحرصت بعض المصادر على أن تزيد في حوادث هذه القصة زيادات مشوّقة، تشدّ القارئ لمطالعتها ومعرفة النهاية التي آلت إليها.

من هذه الزيادات: أن سبب حقد عمرو بن هند على طرفة ليس هو الهجاء فحسب، بل هو الهجاء وتشبيهه بأخته أيضاً، ويذكرون أن طرفة كان ينادم عمرو بن هند، فأشرفت ذات يوم أخته، فرأى طرفة ظلها في الجمام الذي في يده، فقال^(٢):

ألا يا أبى الطَّبِيّ أَدِ ذِي يَبْرُقُ شِنْفَاهُ
ولولا الملكُ القاعِ دُ قَدْ أَلْثَمَنِي فَاهُ
فحقد ذلك عليه، وكان قال أيضاً^(٣):

وَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرٍو رَغَوْنَا حَوْلَ قُبَيْتِنَا تَدُورُ
لَعَمْرُكَ إِنَّ قَابُوسَ بْنَ هِنْدٍ لِيَخْلِطُ مُلْكَهُ نُوكَ كَثِيرُ
فكتب له عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين كتاباً أوهمه فيه أنه أمر له بجائزة، وكتب للمتلمس بمثل ذلك^(٤).

ومن هذه الزيادات أيضاً ما ذكروه من أن سبب تحامل عمرو بن هند على

(١) انظر الشعر والشعراء: ١٧٩، ١٧١، ١٨٥، الفاخر: ٧٤، الأغاني (ساسى) ٢١/١٢٥، معجم الشعراء: ٢٠١، جبهة أشعار العرب (طبولاق) ٣٢، شرح المعلقات السبع (قصيدة طرفة)، سبط اللآلى: ٣٠١، الخزانة ١/٤١٢، ٤١٥.

(٢) تقدم البيتان وشرحها ص ٥٥.

(٣) تقدم البيتان وشرحها ص ٣١.

(٤) الشعر والشعراء: ١٨٩، تاريخ يعقوبى ١/٢١٠، معاهد التنصيص ١/٣٦٤.

طرفة تخلُّجُه في مشيته، واعتداده بنفسه عندما قدم عليه، وهم يروون في ذلك عن المتلمس قوله: قدمتُ أنا وطرفة بن العبد على عمرو بن هند، وكان طرفة غلاماً معجباً تائهاً، يتخلُّج في مشيته بين يديه، فنظر إليه عمرو بن هند نظرة كادت تقتلعه من مجلسه. وقال المتلمس لطرفة إثر ذلك: إني لأخاف عليك من نظرته إليك هذه، مع ما كنت قلت فيه. ثم يتمم المتلمس قصة الكتاب إلى عامله بالبحرين على النحو الذي رأيناه آنفاً^(١).

واختلفوا في كيفية تسرب هجاء طرفة إلى سمع عمرو بن هند، فقد ذهبت معظم المصادر إلى أن عمرو بن هند وعبد عمرو كانا في رحلة صيد حينما أبصر عمرو بن هند كشحه، وسخر منه، وذكره بقول طرفة فيه، على حين يذهب المفضل بن سلمة إلى أنها كانا معاً في حمام، فلما تجرد قال عمرو بن هند: لقد كان ابن عمك طرفة ينظر إلى كشحك حين قال... الخ^(٢).

وكما اختلفوا في بدء تفضيلات الحوادث، اختلفوا في أواخرها، فذهب بعضهم إلى أن طرفة والمتلمس خرجا يحملان كتاب عمرو بن هند، حتى إذا كانا بالنجف، إذا هما بشيخ على يسار الطريق، يُحدِّث، ويأكل من خبز في يده، ويتناول القمل من ثيابه، فيَقْصَعُه! فقال المتلمس: ما رأيت كالיום شيخاً أحق منك! فقال الشيخ: وما رأيت من حمقي؟ أُخْرِجُ خبيثاً، وأدخل طيباً، وأقتل عدواً. ثم تابع الشيخ حديثه، وكأنه يعلم الغيب، فقال: أحق مني، والله، مَنْ حاملٌ حتفه بيده، ولا يدري ما فيه! فاستراب المتلمس بقوله، وطلع عليهما غلام حيرتي، فقال له المتلمس: أتقرأ يا غلام؟ قال: نعم، ففك الصحيفة ودفعها إليه، فإذا فيها: أما بعد، فإذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه، وادفنه حياً. فقال لطرفة: ادفع إليه بصحيفتك يقرأها، وفيها، والله، ما في صحيفتي، فقال طرفة: كلا، لم يكن ليجتريء علي! فقدف المتلمس بصحيفته في نهر الحيرة، وأخذ نحو الشام، وأخذ طرفة نحو البحرين، فضرب المثل بصحيفة المتلمس^(٣).

(١) شرح القصائد السبع: ١١٥، الأغاني (ساسي) ١٢٦/٢١.

(٢) الفاخر: ٧٤.

(٣) الشعر والشعراء: ١٨١، شرح القصائد السبع: ١١٦، الأغاني (ساسي) ١٢٦/٢١.

ومن اختلافاتهم في عرض أواخر القصة تباين رواياتهم في كيفية قتله :
فقد ذهب ابن قتيبة إلى أن عامل البحرين سقاه الخمر حتى أثمله، ثم فَصَدَ
أَكْحَلَهُ^(١).

وذهب الزوزني إلى أن شبَّان عبد القيس جعلوا يدعونهُ ويسقونه الخمر حتى
قتل^(٢).

وذهب البكري إلى أن طرفة في ساعاته الأخيرة خُيِّرَ في القتل، فاختر أن
يُسْقَى الخمر، وتُفْصَدُ أكحلاه، ففعل به ذلك، حتى مات نَزْفاً^(٣).

وزاد صاحب جمهرة أشعار العرب أن طرفة قال شعراً قبل صلبه^(٤):

فَمَنْ مُبْلِغُ أَحْيَاءِ بَكَرِ بْنِ وَائِلٍ بَأَنَّ ابْنَ عَبْدِ رَاكِبٍ غَيْرُ رَاكِجٍ
عَلَى نَاقَةٍ لَمْ يَرْكَبِ الْفَحْلُ ظَهْرَهَا مُشْدَبَةٌ أَطْرَافُهَا بِالْمَنَاجِلِ
فهو إذا قُتِلَ مصلوباً على رواية أبي زيد القرشي .

ووقف أبو العلاء المعري في رسالة الغفران أمام الأفاويل في أمر طرفة موقف
المرتدِّ الحيران، فجعل ابن القارح يخاطب طرفة قائلاً: «ولقد كَثُرَتْ في أمرِك
أفاويل الناس: فمنهم مَنْ يزعم أنك في مُلْكِ النعمان اعتُقِلْتَ، وقال قوم: «بل
الذي فعل به ما فعل عمرو بن هند...»^(٥)

وذهب الظن بالشريف المرتضى أيضاً إلى أن قاتل طرفة قد يكون النعمان،
فقد أورد قول الفرزدق الذي يذكر فيه الشعراء الذين أورشوه أشعارهم:

وَهَبِ الْقَصَائِدَ لِي النَّوَابِغُ إِذْ مَضَوْا وَأَبُو يَزِيدَ وَذُو الْقُرُوحِ وَجَرُولُ

(١) الشعر والشعراء: ١٨٩ .

(٢) شرح المعلقات السبع (قصيدة طرفة) .

(٣) سمط اللآلي: ٣٠١ .

(٤) جمهرة أشعار العرب: ٣٣ (ط بولاق) .

(٥) رسالة الغفران: ٣٣٨ .

وأخو بني قيسٍ وهُنَّ قَتْلَنُهُ وَمُهْلَهُ الشَّعْرَاءِ ذَاكَ الْأَوَّلُ

يعني بالنوابغ: النابغة الذبياني، والجعدي، ونابغة بني شيبان، ويعني بأبي يزيد المخبل السعدي، وجرول هو الحطيئة، وذو القروح امرؤ القيس، وأخو بني قيس هو طرفة. ومعنى قوله: «وهن قتلنه» يعني القصائد التي هجا بها عمرو بن هند. ثم قال الشريف المرتضى: ويقال: إن صاحب التلمس وطرفة في هذه القصة هو النعمان بن المنذر، وذلك أشبه بقول طرفة:

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي وَلَمْ أُعْطِكُمْ فِي الطُّوْعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي
أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِ بَعْضَنَا حَنَاتِكَ بَعْضَ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وأبو منذر هو النعمان بن المنذر، وكان النعمان بعد عمرو بن هند، وقد مدح طرفة النعمان، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله، فيشبه أن تكون القصة مع النعمان^(١).

وعجيب أن تكون هذه الزلّة من الشريف المرتضى، فطرفة لم يمدح النعمان، لأنه قتل قبل تولّيه عرش الحيرة بنحو سبع عشرة سنة^(٢). وقوله «أبا منذر» في هذين البيتين لا يكفي للدلالة على أن المعنى بقوله هو النعمان بن المنذر، فعمرو بن هند، هو ابن المنذر أيضاً، ويمكن أن يكنى بأبي المنذر. ثم إن شعر طرفة مليء بقوله: «أعمرو بن هند»، «فليت مكان الملك عمرو»، فلماذا لا يكون قوله هذا المتكرر في شعره دليلاً أقوى على أن صاحب التلمس وطرفة هو عمرو بن هند؟ زد على ذلك أن شعره الذي ذكر فيه عمرو بن هند أثبت من قصيدته التي منها هذان البيتان، فهي قصيدة منسوبة لطرفة، وكان المفضل الضبي ينكرها، ولم يثبتها الأصمعي فيما روى لطرفة من شعر، وفي تضاعيفها كثير من الدلائل على أنها موضوعة، وهذا ما سأشير إليه فيما أستقبل من حديث عن ديوانه.

(١) أمالي المرتضى ١/ ١٨٥.

(٢) انظر كتاب عدي بن زيد العبادي: ٢٩، ٧١.

وفي هذه القصة أقوال متضاربة حول مَنْ قام بقتله^(١)، وعزل مَنْ لم يقدم على قتله، وتعيين غيره، وأمر عمرو بن هند بقتله مع طرفة^(٢). إلى غير ذلك من التفاصيل الجزئية في بناء القصة.

هذه هي الرواية المشهورة عن سجن طرفة ومقتله، تناقلتها كتب الأدب والأخبار في نصوص محبرة، وحوادث منسقة، وجزئيات متفقة حيناً، ومختلفة حيناً آخر، ولا يسع الباحث المتأمل أن يقبلها في تفصيلاتها عارية عن الشك؛ ذلك أن الاصطناع واضح في تأليفها، والتكلف بيّن في سير حوادثها.

فلماذا أحال عمرو بن هند طرفة والمتلمس إلى عامله في البحرين ليقتلها؟ أشفق من قتلها هو بنفسه، وهو الذي حرّق مئة من بني تميم، كما تزعم الروايات! وهو الشديد العاتي الجبار الملقب بمضطرّ الحجارة لقوة شكيمة وشدة بأسه؟!

وإذا كان يحسب لمقتله حساباً، ويخشى من غضبة بكر بن وائل، فهل يأمر بقتله في أراضيها، حيث عزتها ومنعتها وكثرة عديدها؟!

وكيف لا يساور طرفة الشك فيما كتبه عمرو بن هند في رسالته، بعد أن أطلعه المتلمس على مضمون رسالته هو، وتولى هارباً إلى الشام؟ وهو يعلم ما بدر منه من خروج عليه بانحيازها إلى عمرو بن أمارة وسيره معه إلى اليمن، ومن هجاء مرّ مؤلم مثير؟

وإذا كان صاحب البحرين قد رفض تنفيذ أمر عمرو بن هند بقتله، وعرض نفسه لنقمته، فلماذا سجن طرفة، وقعد ينتظر هذه النعمة لتحلّ به وبطرفة معاً؟ أما كان جديراً به أن يهرب هو وطرفة، ويتنجّوا بنفسيهما من بطش عمرو بن هند الجبار المحرّق؟!

وكيف احتملت بكر هذه الإهانة الكبيرة بتعيين تغليبي على الحيرة بدل العامل البكري المعزول، وقعد بنوها عن نجدة شاعرهم، وسكتوا عن مقتله ولم يثوروا إذ رأوه يقتل أمام أعينهم، وفي عقر دارهم؟!

(١) انظر جواد علي ٥٣٧/٩، ٥٣٨.

وهل كان الهجاء وحده هو السبب في اضطغان عمرو بن هند على طرفه وأمره بقتله؟

إن أسئلة كثيرة يستطيع الباحث المتأمل هذه الرواية أن يطرحها شاكاً في كثير من حوادثها، لأنها لم تقم على أساس من المنطق السليم.

وأغلب الظن أن هذه الرواية مبتورة، وأن لها بداية تلقي كثيراً من الضوء على الأسباب البعيدة التي أدت إلى مقتل طرفه، ولقد أورد هذه البداية أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، شارح القصائد السبع الطوال، في مقدمة قصيدة طرفه، عن هشام بن محمد الكلبي عن خراش بن إسماعيل العجلي، وكنت ألفت إلى طرف منها في كلامي على الملك عمرو بن هند في الفصل السابق^(١)، وهأنذا أورد ملخصاً وافية عنها، لما لها من أهمية في توضيح تلك الأسباب:

تزوج المنذر بن امرئ القيس هنداً بنت الحارث بن عمرو المقصور بن حُجر آكل المرار، فولدت له عمرو بن المنذر، والمنذر بن المنذر، ومالك بن المنذر، وقابوس بن المنذر. فلما كبرت هند عند المنذر، أعجبته ابنة أخيها أمامة بنت الحارث، فطلق هنداً وتزوجها، فولدت له عمراً، وعرف بعمرو بن أمامة، وهو الذي قتله مراد بقضيب^(٢). وقد كان المنذر في حياة منه جعل الملك من بعده لابنه عمرو بن هند، ثم لقابوس، ثم للمنذر بن المنذر بعدهما، ولم يجعل لعمرو بن أمامة شيئاً، ففيه وقع الشر بينه وبين إخوته. وكان عمرو قد جعل لقابوس قوماً من العرب يسامرونه، ويركبون معه، وقد كان طرفه بن العبد قد رأى من قابوس وعمرو جفوة، فأنشأ يقول:

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرٍو رَغُوثاً حَوْلَ قُبَيْتِنَا تَخُورُ^(٣)

وكان قابوس قد قسم الدهر يومين: يوم نعيم لا يخرج فيه، ويوماً يغشاه من عشيرته من أولاد أولئك الأشراف الذين جعلهم عمرو مع قابوس، فيقفون ببابه إلى

(١) ص ٣٣.

(٢) قضيب: واد في أرض تهامة (معجم البلدان).

(٣) تقدم البيت وشرحه ص ٣١.

الليل، فإن أعجبه حديث أحد أدخله، وإلا وقف مكانه. وكان عمرو يفعل ذلك أيضاً، فلما ملك عمرو بن هند استعمل إخوته من أمه، وقطع عمرو بن أمامة، فقال عمرو بن أمامة في ذلك^(١):

أَلْبِنَ أُمَّكَ مَا بَدَا وَلَكَ الْخَوَزَنْقُ وَالسُّدِيرُ
فَلَأْمَنَمَنْ مَنَابِتَ الـ ضُمْرَانِ إِذْ مُنِعَ الْقُصُورُ
بِكَتَائِبِ تَرْدِي كَمَا تَرْدِي إِلَى الْجَيْفِ النَّسُورُ
إِنَّا مِنَ الْعَلَاتِ تُفَدَى ضَى دُونَ شَاهِدِنَا الْأُمُورُ

ثم إن عمرو بن أمامة لحق باليمن، فأقى ملكها ومعه ناس من قيس عيلان وغيرهم، وسار معه طرفة بن العبد، وكان طرفة خلف إبلأ لأبيه في جوار قابوس وعمرو بن قيس بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي ربيعة الشيباني. فلما قدم عمرو ابن أمامة على الملك اليماني سأله أن يبعث معه جنداً يقاتل به أخاه عن نصيبه من ملك أبيه، فقال: اختر من شئت، فاختر مراداً، فسيرهم معه، وأقبل حتى نزل بهم وادياً يقال له قضيب في تهامة، فتلاومت مراد بينها، وقالوا: تركتم أموالكم ودياركم وعشائركم، وتبعتم هذا الأنكد! فثاروا به، ولم يشعر عمرو إلا وقد أحاطوا به، وقتلوه، وتفرقت عنه الناس، وانصرفت مراد إلى اليمن.

فاحتمل عمرو بن هند على طرفة الذي كان من مسيره مع عمرو بن أمامة، فأضيم عليه^(٢)، وكانت أول موجدة عليه، فبعث عمرو بن هند إلى إبل طرفة التي كانت في جوار قابوس وعمرو بن قيس فأخذها، لما كان من مسيره مع عمرو بن أمامة فقال طرفة: ^(٣)

لَعَمْرُكَ مَا كَانَتْ حَمُولَةً مَعْبُودٍ عَلَى جُدِّهَا حَرْباً لِدِينِكَ مِنْ مُضَرٍ
ويكمل ابن الأنباري بعد ذلك الرواية مبيناً أن طرفة كان قد هجا عمرو بن

(١) تقدمت الأبيات وشرحها في ص ٣٤.

(٢) أي حقد عليه.

(٣) تقدم البيت وشرحه ص ٥٢.

هند قبل ذلك، ولم يبلغه هذا الهجاء حتى كان خروجه إلى الصيد، كما سبق بيانه في القصة المبسطة آنفاً في بدء الكلام على سجنه ومقتله. (١)

يتضح لنا مما تقدم أن أول موجدة من عمرو بن هند على طرفة كان سببها مسيره مع أخيه عمرو بن أمارة إلى اليمن، إذ عدّ ذلك خروجاً عليه، ويتضح لنا أيضاً أن طرفة هجا عمرو بن هند وقابوساً قبل مسيره مع عمرو بن أمارة إلى اليمن؛ إذ رأى منها جفوة، ولكن هذا الهجاء لم يبلغ مسمع عمرو بن هند حتى كانت رحلة الصيد.

ويبدو أن خروج طرفة مع عمرو بن أمارة الذي انتهى بمقتل عمرو كان يمكن أن يسدل عليه ستار النسيان، لو أن طرفة طمأن من كبريائه، وزايلته عنجهية الشباب واستعلاؤه، وأقبل على عمرو بن هند مؤالياً، مُحاسناً، معتذراً.

ولكن الذي حدث أن طرفة عاد إلى عمرو بن هند ليطالبه بالتأثر لصاحبه عمرو بن أمارة، باعتباره أخا عمرو بن هند، وربما موّه عليه أهداف رحلته معه بأنها كانت بقصد التجارة أو غير ذلك، ولكن عمرو بن هند لم يخف عليه مقصد أخيه، بل بلغه ذلك يقيناً، حين قدم عليه جُعَيْد بن الحارث المرادي، وهو الذي قتل عمرو بن أمارة بيده، ومعه امرأة عمرو بن أمارة وابناه الصغيران، فقال: أيها الملك، سترت عورتك، وقتلت عدوك! (٢)

لم يكن من طرفة بعد فعلته تلك ما يححو أثرها في نفس عمرو بن هند، بل ما كان منه إلا ما يزيد حقداً عليه وغضباً منه، من هجاء لاذع، بلغه في رحلة الصيد بواكيره، ثم تتابع هجاء طرفة له لمصادرتة إبله المستودعة في جوار قابوس وعمرو بن قيس، وهجا قابوساً أيضاً وآل المنذر (٣)، إلى غير ذلك من العوامل التي بسطتها في الفقرة السابقة، وأهمها وقوفه من العرش المنذري موقف الاستعلاء والمعارضة

(١) أنظر ص ٥٨.

(٢) شرح القصائد السبع: ١٢١، وديوانه برواية ابن السكيت، القصيدة الأولى.

(٣) أنظر ديوانه بشرح الأعلام: ٩٦، ١١١، وبشرح ابن السكيت: ١٥، ٥٠.

والنقد والهجاء. وقد أدت مجتمعة إلى عزم عمرو بن هند على التخلص منه، فأمر بسجنه، ثم قتله في السجن.

وإذا كنا نشك في تفصيلات رواية مقتله المستفيضة في كتب الأدب والأخبار، فإننا لا نشك في أنه قتل في ربيع العمر، ولما يبلغ الثلاثين، وأن الذي قتله عمرو بن هند بعد سجن لم يطل، دخله ولم يخرج منه، وربما كانت نهايته تشبه إلى حد بعيد نهاية عدي بن زيد العبادي، الذي قتله النعمان بن المنذر أيضاً في السجن، إلا أن سجن طرفة لم يطل كما طال سجن عدي. أما تلك التفصيلات القصصية التي حفلت بها الرواية المشهورة، فالنفس منها في شك كبير.

ويبدو أن طرفة قال شعراً رائعاً عندما أحاط به الموت، وأحس أن أجله قد حُمّ. يشهد لذلك قول الجاحظ: «وليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد وعبد يغوث، وذلك أنا إذا قسنا جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما، لم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمن والرفاهية»^(١).

وفي هذا الخبر دليل واضح على ذهاب شعر طرفة الجيد الذي تبوأ به مرتبة الفحول، ودليل آخر على صلابة عود طرفة وقوة شخصيته ورباطة جأشه في أحلك ساعات العمر، وأشدّهن وطأة على النفس الإنسانية.

(١) البيان والتبيين ٢/٢٦٨، والحيوان ٧/١٥٧.